٨ - خاتمة مطاف فتوحات الإسكندر

تـرى هل كان الإسكندر الأكبر المقدونى سيصبح أسعد حالا لو ظل فـى بـلاد اليونان قانعا بحكم كل المدن اليونانيـة مـن بيـلا عاصمـة مقدونيـا ليعيـش حيـاة مستقرة ويرعى أمه ويحد من نزواتها ، ويتزوج لينجب وريثا للعـرش المقدونـى ؟ ربما ، ولكن هكذا شاءت إرادة الله ولا راد لمشيئته .

ولعل أول الدروس المستفادة تسترعى الانتبـاه فـى فتوحـات الإسـكندر التـى تتمثل فى سؤال هو : لمـاذا لم يفكـر أبـدا فـى الرجـوع إلى موطنـه الأصلـى بعـد الانتصار فى معركة أو معركتين أو ثلاث معارك ؟

كان أبوه الملك فيليب يفعل ذلك ! كان يخرج من عاصمة مملكته بيلا ليخـوض معركة ينتصر فيها فى الغالب الأعم ثم يعود بجيشه إلى عاصمـة مملكتـه ، وهكـذا كان يفعل كل الملوك القادة الذيـن كـانوا يقـودون الجيـوش بأنفسـهم ، فمـا بـال الإسكندر الأكبر المقدونى وقد أصبـح هـو الاسـتثناء الوحيـد مـن هـذه القـاعدة العامة؟ لماذا لم يرجع الإسكندر بعد انتصاره فى أول معركة ضد الفرس عنـد نـهر جرانيكوس سنة ٤٣٤ ق . م ؟

لماذا لم يرجع بعد انتصاره المرموق على الملك الفارسى دارا الثالث ملك الملوك فى معركة إيسوس فى نفس السنة ؟ ماذا كان يـدور فـى ذهـن الإسـكندر الأكـبر وهو يواصل فتوحاته العسـكرية وتقدمـه السـريع فـى مطاردتـه لجيـوش الفـرس المعادية ؟ هل كان يصر منذ البداية على أن يغزو العـالم المعمـور كلـه أم أن غـزو العالم المعمور قد تم مرحلة بعد أخرى دون ترتيب مسبق ؟

إن التوجيهات الاستراتيجية لأية معركة يتضح فيها فى العصر الحـاضر المهمـة التى يتعين على الجيش إنجازها ، ويتحـدد فيـها الحـد الـذى تتوقـف عنـده قـوات الجيش لو تمكنت من الوصول إلى ذلك الحد . ولا يوجـد جيـش فـى العـالم يشـق طريقه فى الدنيا من أولها إلى آخرها دون أن يتوقف عند حد معين .

".. ماذا كان يدور فى ذهن الإسكندر وهو يواصل

فتوحاته العسكرية ؟ .."

ومن الطريف فى هذا المقام أننا لا نزال نتذكر أن التوجه الاستراتيجى للقوات المسلحة المصرية أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ م كما هو معروف للكافة ، كانت تجعل الحد الذى تصل إليه القوات المسلحة المصرية بضعة أميال إلى الشرق من قناة السويس فقط بعد عبور القناة وتدمير خط بارليف الحصين على الضفة الشرقية للقناة .

ويعتبر عبور الجيش المصرى لقناة السويس وهى مانع مائى كبير ، وتدمير خط بارليف إنجازا عسكريا عظيما ، ولكن كم تبدو المقارنة مدهشة عندما يكون واجب جيش هو احتلال بضعة كيلو مترات من الأراضى التى تحتلها قوات العدو ، وعندما ينطلق جيش فى الدنيا كلها من غربها إلى شرقها دون أن يتوقف عن الحرب حتى مات عنه قائده ليضيع جيش الإسكندر الأكبر المقدونى وتضيع كل فتوحاته أدراج الرياح .

ولم يكن الإسكندر نفسه يستطيع الرجوع لزيارة موطنه فى شمال بلاد اليونان بعد وصوله إلى مصر مثلا ولو بطريق البحر ؛ لأنه لا يأمن أن تصادفه سفينة من الأسطول الفارسى أو مجموعة سفن لتقطع عليه طريق العودة كما لم يكن يستطيع أن يعود فى إجازة ميدانية إلى موطنه الأصلى بطريق البر خوفا من أن يتعرض لأى حادثة فى طريق العودة إلى أرض الوطن .

ولم يكن الإسكندر يريد أن يعود بجيشه إلى بلاد اليونان ؛ لأن مواصلة التقدم فى الزحف فى أراضى الإمبراطورية الفارسية وما وراءها شمال شرق وشرقا كان فكرة مسيطرة على الإسكندر كل السيطرة ، وكأنما كانت تسوقه أقدار إلهية لا يستطيع لها دفعا .

".. كان الإسكندر يندفع فى فتوحاته وكأنما تسوقه أقدار
إلهية لا يستطيع دفعها"

نجح الإسكندر بجيشه القوى أن يغزو العالم .. ولكن الجيش لا
يستطيع وحده أن يقيم دولة أو أن ينشئ حضارة

ولعل أهم الدروس المستفادة من تاريخ فتوحات الإسكندر هو أن الزحف العسكرى يلزم أن تكون له حدود يقف عندها ؛ لأن التوغل فى الأراضى المعادية لمسافات طويلة يجعل من الممكن أن تتكون قوات معادية وراء القوات التى تواصل تقدمها إلى آماد بعيدة مما يشكل خطورة عليها .

ومن الغريب فعلا أن الإسكندر الأكبر مع عبقريته العسكرية فى إدارة وكسب كل معركة من معاركه على حدة قد اندفع إلى الإمام إلى ما لا نهاية دون أى التفات للوراء على الإطلاق ، وكان يعمد إلى إضافة جنود ومعدات قتال ومهندسين وأطباء وعلماء وأسلحة إلى جيشه من البلاد التى يفتحها ، كما كان يحصل على الأموال من خزائن الملوك الذين كان يهزمهم ، ومن تبرعات التجار فى البلاد التى يدخلها ، ومن بيع الأسرى عندما كان يقرر أن يكون له أسرى يعرضهم للبيع . ولكن كل هذه الميزات لا تبرر على الإطلاق إغفال الإسكندر الأكبر لخط الرجعة إلى موطنه الأصلى وكأنه قد نسى تماما أن موطنه الأصلى هو " مقدونيا " فى شمال بلاد اليونان ، أو كأنه قد اعتبر أن "جيشه" الذى كان يقوده بنفسه هو " وطنه " ولا وطن له سواه . وهذا تصَوُّر عقيم وغير سليم بأى حال من الأحوال ، وأثبتت تجارب فتوحات الإسكندر نفسها خطأ هذا التصور.

الجيش ركن من أركان الوطن يؤدى وظيفة الدفاع عن أرض الوطن ، وليس الجيش بكل حال من الأحوال هو كل الوطن ، ولابد من وجود التلاحم والاتصال والتواصل المستمر بين الجيش وبين الوطن ، والويل كل الويل لجيش تنقطع خطوط اتصاله بأرض الوطن ، وكان ذلك هو المصير البائس لجيش الإسكندر الأكبر الذى فتح به العالم المعمور فى عصره !

ويتصل بذلك ثالثا أن الواجب الصحيح للجيش هو الدفاع عن أرض الوطن وليس الهجوم لذات الهجوم على أرض أوطان أخرى ما لم يكن ذلك الهجوم للقضاء على قوات للعدو تتأهب لغزو أرض الوطن فيما يعرف الآن بالحرب الوقائية .

ولو طبقنا هذا المفهوم على فتوحات الإسكندر الأكبر لوجدنا أنه كان يكفيه أن يدمر الجيوش الفارسية فى شبه جزيرة الأناضول ليوفر الحماية لبلاد اليونان ومقدونيا لعشرات السنين . ولنكن أكثر مرونة لنقول : إنه كان يكفى الإسكندر أن يضيف إلى شبه جزيرة الأناضول البلاد الواقعة إلى الشرق من البحر المتوسط ومصر ، ولكن انطلاق فتوحات الإسكندر الأكبر إلى ما لا نهاية كما حدث فى الواقع الفعلى تبدو تصرفا غير معقول ليس له ما يبرره من خلال وجهة نظر بشرية تعتمد على تقدير ما يصح وما لا يصح بمعايير البشر .

ويتصل بذلك رابعا أن السيف وحده لا يؤسس حضارة ولا يضع أساس عمران بشرى . وقوة العقل وحكمة الكلمة أبقى وأكثر نفعا من صليل السيوف لتحقيق الانتصار فى المعارك الدموية التى تسفك فيها السيوف دماء البشر .

ولقد نجح الملك فيليب ونجح القائد المقدونى أنتيباتر الذى كلفه الإسكندر الأكبر ضم المدن الباقية فى جنوب اليونان وفى مقدمتها أثينا لتخضع للحكم المقدونى ، نجحا فى أن يضطرا الخطيب الأثينى البارع " ديموستين " إلى الفرار إلى معبد بوسيدون فى جزيرة خارج بلاد اليونان كلها ، ووصل إليه مجموعة من جنود أنتيباتر واضطروه إلى الانتحار .

وهكذا يبدو ظاهريا فى المدى القصير أن السيف قد انتصر على القلم مصداقا لقول شاعرنا أبى الطيب المتنبى إذ يقول :

السيف أصدق إنباء من الكتب　　فى حده الحد بين الجد واللعب

ويمكن لنا أن نعارض هذا البيت من شعر المتنبى معنى ومبنى عندما نقول:

السيف لا يبقى من مفاخره　　إلا ما سطرته الأقلام فى الكتب

مات الملك المقدونى فيليب ، ومات ابنه الإسكندر الأكبر ، ومات القائد المقدونى أنتيباتر ، وبقيت خطب ديموستين تستنهض همم كل أمة مغلوبة على أمرها لكى تكافح لاسترداد حريتها من براثن مغتصبيها .

ويتصل بذلك خامسا أن وقائع التاريخ البشرى إنما تجرى وفقا لمشيئة الله - سبحانه وتعالى .

والحرب إنما هى مناسبات لتغيير مسار البشر كجماعات وشعوب وأمم ، كما أن الحدث الفردى الذى يحدث للشخص ربما يكون مناسبة لتغيير مسار حياته .

إن الإسكندر الأكبر المقدونى يبدو بوضوح أنه كان مسوقا فى فتوحاته طبقا لأحكام قدر إلهى لا فكاك له منها .

ولقد أشار الله - سبحانه وتعالى - فى القرآن الكريم إلى هذا المعنى إشارة موجزة حافلة بالمعانى فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا** ﴾ [سورة الكهف : ٨٤ - ٨٥] .

ولقد وهب الله الإسكندر الأكبر قدرات ومواهب عسكرية فذة . وهيأ له الحصول على خبرات عسكرية ، إذ ترعرع وسط جيش أبيه الملك القائد المحنك المتمرس بالحرب وفنون القتال ، ووفر له أفضل تعليم مدنى يجعله من أكثر الناس قدرة على فهم العالم من حوله على يد معلم فذ هو أشهر فلاسفة التاريخ على الإطلاق ، المعلم الأول الشهير أرسطوطاليس .

ولا يسعنا فى خاتمة المطاف مع نشأة وفتوحات الإسكندر الأكبر المقدونى ذى القرنين سوى أن نقول : " سبحانك اللهم، خلقت الإنسان ، وعلمته ما لم يعلم ، لتجعل من حكمة الإنسان المحدودة دليلا على حكمتك الكاملة ؛ ووهبت لمن شئت المواهب والقدرات ، لتجعل من قدرة الإنسان المحدودة دليلا على قدرتك الكاملة " .

بعد رحلة طويلة من الانتصارات مات الإسكندر الأكبر عن إمبراطورية واسعة .. توزعت بعده بين قواده ولم يتحقق حلم الإسكندر فى إنشاء دولة واحدة تحكم العالم كله

ولقد تمكن الإسكندر الأكبر المقدونى ذو القرنين بالفعل أن يغزو ويسيطر على العالم المعمور فى عصره بالقوة العسكرية سيطرة كاملة وبالسيف وحده . وبمجرد وفاة الإسكندر غريبا شريدا بعيدا عن موطنه ، لم يبق من فتوحاته شيء لنفسه أو لأولاده أو لوطنه ، اللهم إلا عبرة أن السيف وحده لا يقيم أوَدَ دولة ولا ينشئ أسس حضارة ؛ لأنه لا يوجد فى حد السيف عقيدة دين ، ولا يوجد فى حد السيف شرائع تصلح لحياة بنى الإنسان .

(تم بحمد الله وعونه)